﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣﴾ [الحجر: 83]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أمنُ الظّالمين من مكرِ الله، استدراجٌ لهم

لَمّا كذّبوا رسولَ الله صالحًا ﵇، وكانوا يظنّون أنَّهم آمنون من عذاب الله تسبَّبَ عن تكذيبِهم، نزول العذاب بهم ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ﴾.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

كلُّ تحصُّنٍ زائلٍ أمام عذاب الله المُسلَّط على أعدائه المجرمين

فأخَذت قومَ صالحٍ صَيحةُ الهلاكِ في ضحوة اليوم الرّابع من اليوم الذي أوعِدوا فيه بالعذاب كما جاء في قوله: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥﴾ [هود: 65][1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء، في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾:

تعقيب كلِّ شيءٍ بحسبِه ووقتِه المناسِب له

تفيدُ الفاءُ التَّعقيبَ والسّببيَّةَ، ولمّا كان تعقيبُ كلِّ شيءٍ بحسبه، وكان صالحٌ قد أوعدهم بالعذاب كما جاء في قولِه تعالى: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥﴾ [هود: 65]، دلَّ على أنّ المرادَ منَ التّعقيبِ الزّمنُ القريبُ الذي لا مهلةَ فيه، بعد أن أوعدهم، فالتَّعقيبُ عرفيٌّ، وموافقٌ لزمن الإيعادِ، كما أفادت الفاءُ ترتّبَ الأخذِ بالصّيحةِ على تكذيبِهم المرسلينَ وإعراضِهم واتّخاذِ البيوتِ التي ركنوا إليها للأمن من العذاب[2].

نكتة التّعبير بقوله ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ﴾:

جـزاءُ مـن يكذّبون الرُّسلَ، ما يطالهم من الذّلّةِ والحقارة

دلَّ التّعبير بـ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ﴾ أنّهم حينَ وقوعِ العذابِ أُخذوا أخذَ مَن

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/104، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1053، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/41.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/193.

هوفي القبضة على غاية الذّلّةِ والحقارة، لإفادة قهرِها لهم وتمكّنها منهم، ومنه الأخيذُ للأسير، والأخذُ بالصَّيحةِ هو الجزاءُ المناسبُ لتكذيبِهم واستكبارِهم وخلودِهم إلى الدّنيا، كما دلَّ اللّفظُ على أنَّ الصَّيحةَ أحاطت بهم إحاطة الآخذ للشيء، للإشعار بأنَّ أحدًا منهم لم يُفلت منَ العذاب[1].

بلاغةُ الكنايةِ في أخذ الصّيْحة لهم:

إهلاكُ الظّالمين، قهرٌ لهم، وشدّةُ بطشٍ بهم

في التّعبير بـ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ كنايةٌ عن سرعةِ إهلاكِهم بالصّيحة، ويفيد بلازمِه كذلكَ أنَّ إهلاكَهم كان على سبيلِ القهرِ وشدّةِ البطشِ.

بلاغةُ الإسناد المجازيّ، في سياق الآية الكريمة:

أخذ الصّيحة للمقصودين بالعذاب، تشعر بعظمة العظيم

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ﴾، لمّا أسند الأخذَ إلى الصّيحة، كان الكلامُ على طريق الإسناد المجازيّ، للإيذانِ بالمبالغة في الأخذِ، ولتصوير الحالةِ وهولِها.

بلاغةُ الاستعارة المكنيَّة في لفظ ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾:

بيانُ شدّة البطشِ في الإهلاكِ والاستدلالِ عليه

شُبِّهَت الصّيحة بشخصٍ يأخذُ أخذ القهرِ والإهلاكِ، ثم حُذف المشبه به وذُكر لازمٌ من لوازمه المعبِّر عن الإهلاكِ وهو الصّيحة؛ ليكون الكلام على طريق الاستعارة المكنية الأصلية، وفائدتها الإشعارُ بهولِ البطشِ الذي أهلكَهم، وليكون الكلام على طريق الاستدلالِ على إهلاكِهم تمامًا.

معنى (ألْ) في لفظ ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾:

الصّيحة الّتي تنزل بالمكذّبين، صيحةٌ هائلةٌ مهلكةٌ

(ألْ) هنا جنسيَّة بمعنى كلِّ معاني الصّيحة التي تكون هائلةً مهلكةً، ويُحتملُ أن تكون (أل) عهديَّة بمعنى الصّيحة، التي هي منَ النّوع الذي أهلكَ غيرَهم منَ المكذبين، كما يحتمل أن تكون عوضًا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/449، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/227.

عنِ المضاف، والتّقدير فأخذتهم صيحة العذاب، والمعاني الثلاثة مآلُها واحدٌ[1].

المتشابه اللّفظيّ في ذكر الرّجفة والصّيحة والطّاغية:

الـــرّدُّ عـلى الـطّـاعـنـين في دعـــواهـــم، تـنـاقـض ألـفـاظ القرآن

طعن بعضُ الطّاعنين في هذه الآيات بأنَّ ألفاظ القرآن قد اختلفت في حكاية هذه الواقعة، وهي الرَّجفةُ والصَّيحةُ والطّاغيةُ، وزعموا أنَّ ذلك يوجب التَّناقض في آياتِ القرآنِ، فذكر هنا في سورة الحجر ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ﴾، وقال في سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ [الأعراف: 78] وفي موضعٍ آخرَ قال: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾ [هود: 67]، وفي موضع آخر قال: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ٥﴾ [الحاقة: 5]، والجوابُ: لا منافاةَ بين ذلك، ولا تناقضَ، فقد عُبِّرَ في كلِّ موضعٍ بما يناسبُ المقامَ، ويكون الذي أصاب ثمودَ - وهم أصحابُ الحجر - صاعقةً أو صواعق متوالية أفضت إلى الرَّجفة، أي: صُعقوا فرجفت بهم أرضهم وأعقبها زلازل، فالغالب أنَّ الزَّلزلة لا تنفكُّ عن الصّيحةِ الهائلة العظيمة، فأهلكتهم صَعقين، فجاز أن يُسْنَدَ الإهلاكُ إلى كلٍ منهما، وأمّا قوله تعالى: ﴿فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ٥﴾ [الحاقة: 5] فالباء للسببية، والتقدير بالفعلةِ الطّاغيةِ، والطاغية الطُّغيان مصدرٌ كالعاقبة، والتاء للمبالغة، ويقال للمَلِكِ الجبار طاغية، فمعنى: ﴿فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ٥﴾ [الحاقة: 5] أي بسببِ طغيانهم كقوله: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ١١﴾ [الشمس: 11] أي: بسبب تجاوزهم الحدَّ باستكبارهم وكفرهم وعَقْرِهم النّاقَة، ويُمكنُ أنْ يُرادَ بالطّاغيَةِ الرَّجْفَةُ أوِ الصَّيْحَةُ لِتَجاوُزِ كُلٍّ مِنْهُما الحَدَّ في هولها وعظمِها وسرعةِ أخذها وبطشِها، أو على إرادةِ الجمعِ بينهما، ولمناسبة الفاصلةِ كذلك أثرٌ في التّعبير بقوله: ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ ٥﴾ [الحاقة: 5][2].

---

(1) العليمي، فتح الرحمن: 3/566.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/308، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/97.

معنى (مُصْبِحِينَ)، داخلين في وقتِ الصّباح

بلاغةُ الإخبار بالحالِ ﴿مُصۡبِحِينَ﴾، دون الظَّرف:

اختير الإخبار عن وقت العذاب بالحال في قولِه ﴿مُصۡبِحِينَ﴾، دونَ الظّرفية بأن يقال في وقتِ الإصباح؛ لِما يدلُّ عليه الحال من تصوير هيئتِهم بأخذِ الصّيحة لهم وهم داخلون في وقتِ الصّباح أي في وقتِ النّهار، وأفاد الحالُ كذلك تاكيدَ إهلاكِهم؛ لأنَّه ذكرهم في الضمير في قولِه ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ﴾ وكرّر ذكرَهم بلفظ الحال، فإنَّ معنى ﴿مُصۡبِحِينَ﴾ داخلون في وقتِ الصّباح.